« فلسطينيات » :

العـــابث . . . !

للأستاذ نجاتي صدقي

من يجتز ميدان المغربي بتل أبيب ، وهو يشبه في الظاهر ميدان سنت ميشيل بباريس ، ير في طرفه الأيسر مقهى صغيرا ، جميل الهندسة ، حسن الترتيب ، فاخر الأثاث ، يؤمه عادة أهل الفن والأدب من يهود تل أبيب ، كما يتردد إليه عدد لا يستهان به من المهاجرين والمهاجرات ، يتعارف بعضهم إلى بعض ويتبادلون الآراء ويحتسون الجعة على أنغام الموسيقى المهدهدة .

ولا يجوز قط اعتبار هذا المقهى مكاناً لترفه اليهود فقط ، فمن رواده الدائمين أيضاً بطل قصتنا هذه «عزيز» ، وهو شاب تجاوز الثلاثين ، فلم يدع بابا في الحياة إلا طرقه ، ولم يترك حرفة في المجتمع إلا مارسها ، وهو في طبعه محب للمغامرات له شذوذه ، كما أنه يتذوق الأدب ، ويبدي آراء جريئة في السيكولوجي ، ويجيد الإنكليزية ، ويتكلم العبرية قليلا ...

وفي إحدى الأمسيات جاء « عزيز » المقهى وبصحبته صديق مزارع من شمال فلسطين ، أنعم الله عليه بالثراء وسعة العيش ، وحرمه العلم وسعة المدارك ، وجلسا إلى مائدة ، وكانت ملامحهما تدلان على أنهما من مهاجري بلغاريا أو رومانيا ، فلم يكترث بهما أحد ، في حين أنهما كانا يبديان اهتماماً زائداً ببجلاس المقهى ، وبخصان الفانيات الفاتنات من بنات يهوذا بنظرات كلها عطف وشوق ...

وإذ كانا يتناولان الكأس الرابعة من الويسكي في جو اختلطت فيه ضجة الحاضرين بلحن (الفولغا) لمحا من خلال الدخان الكثيف امرأة ممشوقة القد ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، ترتدي معطفاً فوزاقياً ، تلج المقهى وهي تتهادى في مشيتها . فما إن وقفت عند بتك الساقي حتى انتصب « عزيز » واقفاً ، وتقدم نحوها بأدب مخمور وقال :

— أتأذن لي مولاتي بكلمة ؟

— تفضل ...

— مولاتي ، لا ريب في أنك من أهل القوزاق ... إني لأرى تموجات نهر الفولغا تتلاقى مع تموجات شعرك الذهبي ، أنت لحن الفولغا الحي ... أنت أنشودة نظمتها الحياة ...

ارتبكت المرأة لهذا الأطراء المفاجيء وأجابته مبتسمة — أأنت شاعر ؟

قال — كلا ، لست شاعرا ، ولكني أعبد الفن ... أنا عربي أومن بأن ليس للفن والجمال حدود عنصرية أو إقليمية .. فبتهوفن معبود العالم بأسره ، وروفائيل سيد الرسامين ، وآينشتين يعترف بفضله كل مخلوق ... و ...

وإذا برجل مديد القامة عريض المنكبين يقطع على « عزيز » خياله ، ويتطلع في وجهه مبتسما ...

قالت المرأة للشاب — هذا زوجي ...

وقالت لزوجها — إنه فنان عربي ... ظن أنني قوزاقية ولم يدر بخلده أني من كوينسبرج ...

قال الزوج — يسرنا جداً أن نتعرف إلى شاب عربي . لقد قضينا عشر سنوات في تل أبيب لم نزر خلالها مدينة يافا قط ... نحن نسمع عنكم ولا نراكم ... والواقع أننا نوهم أنفسنا في هذه المدينة بأننا لم نخرج من أوروبا قط ، فترانا ننشيء بيوتاً غربية الطراز ، ونعيش في المقاهي ... أي إننا لا نكون في بيوتنا إلا وقت تناول الطعام والنوم ... وإذا ما ملأنا المقاهي نجولنا في الشوارع أو ذهبنا إلى دور السينما والموسيقى .... ونحن على الجملة نشعر في حياتنا خارج منازلنا كما لو أننا في منازلنا ... فنساؤنا يسرن في الشوارع وهن يرتدين عباءة البيت أو السراويل الفضفاضة ، أو لباس البحر ... أجل هكذا نعيش ، أما يافا فأقسم لك بأن كثيراً منا لا يعرف بالضبط أتقع هي في جنوب تل أبيب أم في شمالها ... أرجو المعذرة على هذه الغباوة التي هي أشبه بحلم لذيذ ...

وبعد لحظات كان الأربعة يجلسون حول مائدة واحدة ، وقدم «عزيز» زميله إلى الزوج وزوجه بوصفه كاتباً مفكراً يعنى بتصوير الحياة أكثر من عنايته بهندامه ...

وتوالت الأنخاب ، وأظهر الثري القروي كرمه الحاتمي ، فذهلت السيدة البروسية ، وارتاح زوجها لهذا التعارف السعيد ...

ودارت بينهم أحاديث منوعة تخللتها النكات الموفقة والتافهة ، واقترقوا على أن يكون اللقاء فى اليوم التالى ، فى بيت «عزيز» بيافا لتناول الغداء ...

* * *

— أهلا وسهلا أدون ايسبرجر . أهلا بالسيدة « القوزاقية » هه .. هه .. أعرفكما بقرينتى . وهذا زميلى بالأمس . وهؤلاء أصدقائى . وقدمت السيدة أيسبرجر باقة زهور لقرينة صاحب الدعوة وتناولوا أكلا عربياً صرفاً ؛ فسر الضيفان لهذا الحادث الخطير فى حياتهما الفلسطينية ، وانصرفا وهما يلهجان بالثناء العاطر على « عزيز » وكرمه ولطفه ..

وفى اليوم التالى ردت الزيارة إلى تل أبيب ، وكانت زهور وغداء ، وملاطفات وعدم فهم متبادل لما يقصد من هذه الصداقة ... ثم كان وداع على أن يكون اللقاء فى المستقبل فى المقهى الذى حدث فيه التعارف ...

ولما حل مساء اليوم التالى لهذه الزيارة أحس « عزيز » أن شيئا يقلقه ، ويشغل فكره ، ويثير أعصابه ، فأسرع إلى حانة ماوطلب من العرق أولا وثانيا وثالثا تخيل له أنه يسمع لحن الفولغا ؛ وتراءت له السيدة « القوزاقية » كما أرادها أن تكون ، فلم يقو على الاصطبار حتى يحين اللقاء (فى المستقبل) .. فعقد النية على المجازفة مهما كانت العواقب . . وإذ كانت ميزانيته لا تسمح له بالإسراف توجه إلى زميله المزارع الثرى وسأله — أأنت مستعد للبذل فى سبيل ربة الجمال ؟

قال — ومن هى ؟

قال — السيدة ايسبرجر ...

قال — كل ما أملك فداء لها .. وإننى للجمال لعابد ...

وفى الساعة الحادية عشرة من الليل كان عزيز وزميله يترنحان تملين فى شوارع تل أبيب ، فقادتهما أقدامهما إلى دار ايسبرجر ثم صعدا إلى الطابق الثانى ووقفا أمام باب الشقة .. تردد « عزيز » فى الضغط على الزر الكهربائى ، فالعاطفة تحثه على الضغط ، والفكر المكبوت بالخمر يوحى إليه خيبة الأمل .. وأخيراً مد أصبعه نحو الزر وضغطه ، فرت ثوان دون جواب ، فأعاد الضغط وإذا بنور يشع فى الداخل وبخطوات تقترب من الباب مسرعة ثم فتح الباب وياله من منظر : السيدة ايسبرجر بلباس النوم ، وشعرها مسدول على كتفيها ، وقفت أمام الزائرين الليليين مشدوهة ، وقد عانقت نفسها بذراعيها من الخجل والبرد معاً ...

فبادرها « عزيز » قائلا — (شالوم ... مدام ! ...) .

لقد توقعت السيدة ايسبرجر أن يكون الطارق فى تلك الساعة المتأخرة أى مخلوق من أهلها ومعارفها لكنها لم تتوقع قط أن يكون هذا الطارق « عزيز » وزميله ... والواقع أنها ذعرت لمرآهما ، وانعقد لسانها فى فمها فراحت تحدق فيهما النظر محاولة استجلاء ما فى نفسيهما ، فأجاباها بنظرات حائرة شاردة ... وقد تدلت شفتاهما السفليان قليلا . . ولما استعادت المرأة رباطة جأشها ، دفعت الباب فى وجه الزائرين غير المنتظرين ، وصرخت ...

هرول «عزيز» وزميله إلى الشارع ووقفا عند مصباح كهربائى يلهثان ثم خاطب المزارع عزيزاً بقوله - أتضللنى أيضاً ؟ أين ربة الجمال ؟ أعد لى خمسة جنيهات أنفقتهما عليك هذه الليلة .

فأجابه « عزيز » ما الذى تعنيه بقولك هذا ؟ إننى دعوتك إلى زيارة أدبية فنية فقط ... وجل قصدى من هذه الزيارة إفهامك ماهية الجمال من حيث هو فن إلهائى ! ...

قال المزارع — ماذا ؟ ... ماذا ... ؟

قال — الجمال يا عزيزى على نوعين : مجرد ، وفنى ... فالمجرد هو الجمال الملائكى البلورى ، وأما الفنى فهو جمال تقاطيع الوجه الدالة على ماهية النفس ...

قال — دعنا من الهذر ، إننى لم أنفق ما أنفقته هذه الليلة لأسمع منك هذه الترثرة . لن أبرح هذا المكان حتى تأتينى بربة الجمال

قال - صه ... لا ترفع صوتك وإلا فضحنا ، وأساء القوم الظن فينا ... وحاول المزارع المطالبة بحقوقه ... لكن « عزيز » استوقف سيارة ، ودفعه إلى داخلها ، وقال للسائق : إلى يافا . . أسرع ...

قص على « عزيز » قصته هذه وقال :

بودى أن أذهب مرة أخرى إلى السيدة ايسبرجر لأبين لها حسن نيتى من تلك الزيارة الليلية فما رأيك ... ؟

نجانى صرفى